

الفن مرآة المفاحر

المناسبة: أسبوع الدفاع المقدس

الزمان والمكان: 28 جمادى الثانية 1421هـ - طهران

الحضور: جمع من الفنانين والمسؤولين الثقافيين والإعلاميين في ميدان الدفاع المقدس

بسم الله الرحمن الرحيم

أرجُب - أولاً - بالإخوة والأخوات الأعزاء، وجنود الجبهة الثقافية للدفاع المقدس، والأعزاء الذين أربوا عن التضحية بأرواحهم وفكرهم وفنهما وقلوبهم وطاقاتهم الثقافية، فضلاً عن أبدانهم وأجسامهم، فزادوا الشعب الإيراني غنىًّا وقيمة، كما أرجُب - على وجه الخصوص - بعوائل الشهداء الأعزاء والمعوقين، وسواهم من أولي التضحية والداء.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل تضحياتكم القيمة، ويجعل موصلة هذا الطريق المجلل بالمفاحر من نصيب الذين لديهم حظ من الفن والأدب والثراء الثقافي.

الحرب خسائر مادية وانتصارات معنوية

إنّ الحرب لمن أشدّ الأخطار المحدقة بالشعوب؛ ولقد لمسنا هذا جميـعاً بأنفسنا، وبلحـمنا ودمـنا وشعورـنا وإدراكـنا - وليس مجرد شيء قرآنـاه في التاريخ أو طالـعنـاه في الإحـصائيـات - ولكن الأمر المهم هو أنّ بوسـع الشعـوب تحـويل هـذا الحـدث المـليـء بالخـسائر والأـضرـار إـلى فـرصة ثـمينـة ورـأس مـال عـظـيمـ.

إنـكم تـعلمـون أنـ خـسائرـ الـحـربـ لاـ تـقتـصـرـ عـلـىـ جـرـأـتـ الشـعـوبـ إـلـىـ حـافـةـ الموـتـ، أوـ إـيقـاعـ الـخـسائرـ وـالأـضـرـارـ وـتـبـدـيدـ الـثـرـوـاتـ فـحـسـبـ، بلـ إنـ الإـرـادـةـ الـوطـنـيـةـ وـفـطـنـةـ الـحـكـامـ وـحـنـكتـهـمـ إـذـاـ لمـ تـصـبـحـ سـنـدـاـ لـلـبـلـادـ فـيـ حـرـوبـهاـ، فـإـنـ الـخـضـوعـ وـالـذـلـ وـالـمـهـانـةـ

والهزيمة المعنوية التي تلحق بالشعوب ستكون فادحة، وربما أشد وطأةً من كافة الخسائر والأضرار.

إنّ نحو مئة وخمسين عاماً — أو قرابة مئي عام — تمرّ الآن على اتفاقية (تركمانچای)¹ الملطخة بالعار. وإنّ كل إيراني ليشعر بالخجل في قراره نفسه ويحس بالضعة والهزيمة عندما يقرأ هذا التاريخ بعد مضي نحو قرنين من الزمان؛ إذ كيف عجز حكامّ البلاد عن استثمار الإرادة الوطنية والتراث المادي والمعنوي لدعم الهوية الوطنية لهذا البلد في مثل هذا الحدث الكبير؟! لقد توغلَ جيش الأعداء داخل البلاد، ثم ما لبثوا أن قبّلوا بالانسحاب قليلاً بعد سلسلة من التذلل والرجاء والتزلّف ووسائل الأعداء المتلبسين ببراء الأصدقاء، وبعدهما ألحقو الكثير من الأضرار الفادحة والإهانات الفاضحة بالشعب الإيراني، ورضوا بالاستيلاء على سبع عشرة مدينة في القوقاز، فحرموا إيران من جزءٍ عزيزٍ من أراضيها..! وإنكم مازلتם حتى الآن تشعرون بالخجل والذلة والخضوع عندما تتذكّرون هذه الحادثة، أو تطالعونها في الكتب التاريخية وترون ماذا حلّ بالشعب الإيراني في تلك الحادثة المؤلمة.

وعلى غرار ذلك أيضاً ما حدث في الحرب العالمية الثانية، عندما باتت طهران مسرحاً لاستعراض وخياله ضباط البلدان المختلفة الذين راحوا يتجوّلون في شوارعها، وينظرون للمواطن الإيراني بعين الضعف، ويستخدمونه لإنجاز أعمالهم، ويوجهون له الإهانات، ويعتدون على عرضه وشرفه.

فهذا مثالان مختلفان يدلّ كل منهما على ما لحق الشعب من أضرار جسيمة في إحدى الحروب.

ولقد كان كل ذلك ممكناً جراء الحرب التي خاضها هذا البلد سنة 1359هـ—1980م.

¹ معاهدة تركمنچای: معاهدة العار (21 شباط/فبراير 1828 م) بين روسيا وإيران. وقعت من طرف «فتح علي شاه قاجار» الميرزا عبد الحسن خان «آصف الدولة» ومن طرف روسيا نزاري آيوان پاسکویچ «iráq qajar» قائد القوات الروسية. ومن خلال هذه العقود تخلّت إيران من منطقة القوقاز التي شملت مدن رفعت آباد وروانداج وجزء من مغان وشوان إلى روسيا. ولها حق الملاحة في بحر مازانداران، وأضطررت لدفع غرامة مالية إلى روسيا. وقعها ولـي العهد عبليس ميرزا.

إنّ هدف أولئك الذين أرادوا الاستيلاء على جزء من الأراضي الإيرانية لم يكن مجرد تصغيرهم حجم الأرضي الإيرانية، بل كان هدفهم جعل هذا الشعب يشعر بالضعة والمهانة – ربما لمدة قرن أو قرنين – وقتل ما ينبع في داخله من روح الإقدام والثقة، وهو الذي تجرأ على أن يقف بوجه إمبراطورية الاستكبار العالمي العظيم، وأن يثور ضدها خلافاً لكافة الأعراف الدولية، ويأتي بحكومة شعبية مئة بالمئة لا تحني رأسها على الإطلاق أمام أية قوة عظمى عالمية.

لقد كان هذا هو منتهى أملهم، وكان بسعتهم تحقيقه! ولو لا ما قام به المقاتلون، والعوائل، وقوّات التعبئة الوطنية العامة، وما قام به المراسلون في ساحات الشرف ثم عرضوه أمام الجماهير، وكافة الذين حققوا كل هذه المفاحر؛ لبلغ الأعداء أهدافهم، فلا ترتباوا في ذلك.

لقد كانوا يريدون الاستيلاء على جزء من الأراضي الإيرانية، ثم يعيدون إلينا بعضه بعد اللتي واللتيا، وقد منّوا علينا بلطفهم هذا – وذلك طبعاً خلال فترة طويلة تستغرق أكثر من الأعوام الثمانية التي استغرقتها الحرب بالتأكيد – ثم يشعر الشعب الإيراني بالضعة والمهانة كلّما نظر إلى ذلك الجزء من أراضيه!

إنّ هذا الذي شاهدته من مساندة الغرب بأكمله للعراق، ودعم الاتحاد السوفيتي وكافة دول أوروبا الشرقية للعراق، ومساعدة دول وحكومات بلدان الخليج الفارسي العربية – التي هي رهن إشارة أمريكا – للعراق، لم يكن الهدف منه مجرد الإستيلاء على عدّة مدن إيرانية وإعطائهما للعراق، أو إقامة دولة مستقلة، بل كان الهدف القضاء على الشعب الإيراني، وإزالة آثار الهزيمة التي أحقها الشعب الإيراني بجهاز الإمبراطورية الاستكبارية المتعاظم، ولكن الله سلم. فما معنى أن «الله سلم»؟ معناه أنّ الشعب الإيراني لو كان قد أخذ للنوم، ولم يلتحق المقاتلون بجهات الحرب، ولو لم يكن الإمام قد رفع صوته وجّرد صدره ووقف بثبات، ولو لم يكن كل هذا الاستفتار وتعبئة القوى والطاقات، فهل كان الله تعالى سيريد ذلك؟ كلا، فإنّه تعالى منوطه بمصالح الشعوب وإرادتها.

إنّ الحقيقة الكامنة في حياة أيٍّ من الشعوب لا تتغيّر مطلقاً بالإرادة الإلهية إلاّ إذا غير ذلك الشعب ما بنفسه، وهذا هو صريح القرآن وأحد المعارف الدينية الأكيدة.

إنّ ذلك الضرر الذي كان من المزمع إلحاقه — لو لا الإرادة الوطنية وحكمة وتدبير مسؤولي البلاد، وعزم وجد المعنيين بهذا الصدد — قد تبدّل إلى فرصة بفضل هذا الإيمان وهذا العزم الوطني.

نعم، لقد فقدنا الكثرين من أعزائنا في الحرب، وتکبّدنا الكثير من الخسائر المادية والمعنوية، ولكن شعوراً تفجّر في قلب هذا الشعب يحمل من الخير والقيمة ما يفوق كل شيء آخر في حاضرنا ومستقبلنا، ألا وهو شعور الاعتماد على النفس، والإحساس بالعزّة، والاستقلال، والشعور بالثقة الوطنية العظيمة، وشعور الإيمان بتحقيق المعجزات الواحدة تلو الأخرى، بفضل التكافف الشعوب حول محور (الإيمان بالله والعمل الصالح)، وهو ما حدث عندنا.

دور الأعمال الفنية في تجسيد الحقائق

أيها الأعزّاء.. إنّ كمال هذا الأمر لا يتحقق إلا برواية الأحداث على حقيقتها، وهذا يتّضح دوركم.

إنّ جميعكم أو أغلبكم قد ذهب إلى ميادين الحرب، وكان له حضور في الجبهات، كما أنّ الذين لم تسمح لهم أعمارهم بذلك في تلك الأثناء أصبحوا الآن على علم بهذا الأمر.

إنّ هذا الحدث العظيم لو تم نقله بالشكل الصحيح، لظلّت آثاره باقية على الدوام، وأما إذا لم يتم نقله، أو نُقل بصورة غير صحيحة، فسوف تتضاعل هذه الآثار وإن لم تَزل بشكل تام. فإذا نقلت بصورة مغرضة — لا سمح الله — فإن القضية ستكون على العكس.

لقد وقعتآلاف الأحداث خلال الأعوام الثمانية من مرحلة الدفاع المقدس. وإنني أناشد المحافل الثقافية والفنية في البلاد بإعداد فهرست على الأقل لهذه الأحداث العظيمة؛ أطالبهم بالجلوس وإعمال الفكر الدقيق فيها بتمعّن وفن؛ من أجل التوفّر على إعداد هذا الفهرست، ثم يقومون بعد ذلك بمقارنة هذا بالأعمال الفنية التي تم إنجازها حول الحرب حتى الآن — وهي أعمال قيمة جداً — حتى يروا ما أنجزناه من هذا

الفهرست. وإنني أعتقد بأننا لو فعلنا ذلك لوجدنا أننا لم ننجز حتى واحداً بـالآلاف من الذي كان ينبغي علينا التعمق فيه وتوضيحه من أحداث هذه الحرب!

إنني في الغالب قد شاهدت أو سمعت عن هذه الأعمال الفنية التي كُتبت أو صُورت تلفزيونياً أو سينمائياً حول الحرب، ومع أنّ متابعتي لها قد باتت قليلة في الأعوام الأخيرة، إلاّ أنني كنت دائم المتابعة في سنوات الحرب وما تلاها.

ولاشك أنّ ثمة من بينها الكثير من الأعمال القيمة، ولكنها ما تزال قليلة في مقابل هذا الكنز العظيم الذي حظي به الشعب الإيراني خلال أعوام الدفاع الثمانية.

إنّ الحرب لم تدر كلّها على جبهات القتال، بل إنّ الكثير من أحداثها دار في المنازل، والشوارع، وفي حنایا القلوب، وبين المجموعات الممسكة بزمام القرار، وداخل المحافل الدولية.

لقد تعرّضنا للكثير من الممارسات المغرضة والسافرة من قبل تلك المحافل التي تدعى الحياد في القضايا الدولية، وذلك في سنوات الحرب، فلّكم كانوا يطلقون الكثير من المزاعم.

وإنّ أولئك الذين ينادون اليوم بانتزاع أسلحة الدمار الشامل والأسلحة الكيميائية والجرثومية ويعدّونها من الأمور البديهية الواضحة، كانوا هم الذين مدّوا النظام الباعثي والجيش العراقي بالأسلحة الكيميائية، وصنعوا له هذه الأسلحة، أو ساعدوه على تصنيعها.

وإنّ القطبين الدوليين المتعاظمين آنذاك – أي أمريكا والاتحاد السوفيتي السابق – كانوا قد كرّسا كافة طاقاتها لدعم العراق؛ فأين هذه في إنتاجنا الفني؟

لقد رویت مراراً: بأننا ذات يوم احتجنا إلى أسلاك شائكة لاستخدامها في الجبهات. وحيث إنّ إيران لم تكن تنتج هذه الأسلاك فقد اضطررنا لاستيرادها من بلد آخر. ولكن الاتحاد السوفيتي لم يسمح لنا بالعبور بها من داخل أراضيه قائلاً: بأنها من أدوات الحرب! أي أنهم كانوا يدعون بأنهم لا يساعدون أيّاً من طرف في الحرب! وكل هذا في الوقت الذي كانت فيه الطائرات الروسية، والصواريخ الروسية، والخبراء الروس، والضباط الروس، والمتogrّيات الروسية، وكافة الإمكانيات الروسية، موضوعة تحت تصرّف العدو في مواجهتنا في الجانب الآخر من الجبهات الحربية!

كما أنّ أوربا التي تنتقد بالدفاع عن حقوق الإنسان، وتحدّث في المحافل الدوليّة بكل لباقه وأدب ولباقة، قد قامت بدعم العراق بكل ما لديها من إمكانيات، ويستوي في ذلك شرق أوربا، أي يوغسلافيا الحالية وبقية بلدان الكتلة الشرقيّة آنذاك، وغرب أوربا، أي ألمانيا وبقية البلدان الأخرى، ولم يكونوا على استعداد لبيع إيران أبسط الأشياء.

حتى عندما كانت إيران تشتري شيئاً منهم، بشكل أو باخر، فإنها كانت تبذل في ذلك أقصى الجهود وتشتريه بثمن باهظ قد بلغ أضعافاً مضاعفة.

وبالطبع فإن هدفهم كان واضحاً – كما أسلفت – حيث كانوا يريدون القضاء على هذه العزة الوطنية التي حققها الشعب الإيراني بحركته الثورية العظيمة، وسدّ الثغرة التي أحدثتها الثورة في اقتدار الثقافة الغربية والسيطرة الغربية ونظام السلطة العالميّة؛ لقد كان هذا هو هدفهم، وعلى أي حال فقد كانت هذه هي السياسة التي توصلوا إليها. فأين ذلك في إنتاجنا الفنّي، أو السينمائي، أو المسرحي، وسوى ذلك من ألوان الفنون؟ وهل من المستعدي إبراز هذه الأحداث؟ أم أنها ليست تجربة تستهم منها الأجيال القادمة في إيران؟!

لماذا التعامي عن هذه العظمة؟

إننا نلاحظ اليوم بأنّه عندما يدور الحديث حول الدفاع المقدس وحرب الأعوام الثمانية وهذه العظمة المطلقة التي أبدعها الشعب الإيراني – مما بعد موضوعاً فنيّاً بالغ الأهمية، وبوسع الفنان أن تتفتح مواهبه الخلاقّة في العمل على مثل هذه المحاور الوطنيّة المتألّقة – فإننا نعثر على بعض النتاجات هنا وهناك التي لا تتعامى فقط عن هذه العظمة، بل إنها تبحث عن نقطة ضعف – إما حقيقة أو مخالفة – لتجعلها تحت المجهر! فما الهدف من هذه الممارسات؟ ولماذا ينبغي تجاهل هذا الإنجاز العظيم الذي حققه الشعب الإيراني؟! وهل تعتبر هذه خدمة مقدمة للشعب الإيراني الذي وقف برجولة وشجاعة في مواجهة هجوم استهدف حدوده، وشخصيته، وكرامته، وتاريخه، وهوبيته الوطنية، ثم نأتي الآن لنفجر حوله الإثارات، وذلك بلغة الفن؟! إنهم يفعلون ذلك.

وإنني أعتقد بأن هذا ليس من قبيل الصدفة، أي أنه لا يمكن القول: بأن فناناً ما ارتأى في ذلك أسلوباً مناسباً للعمل.

كلا، فالأمر ليس عادياً كما يبدو لي. ولاشك أننا ننحي باللائمة على مسؤولي ومدراء المؤسسات الفنية والثقافية في البلاد، حيث ينبغي عليهم العمل بجد واتخاذ الخطوات المناسبة في هذا الصدد.

إن كل ما اكتسبه هذا الشعب لم يكن إلا بفضل الإخلاص، وإن القرويين والقرويات، وكافة المستضعفين رجالاً ونساء في شتى المدن، ومختلف العوائل، والفئات المختلفة، وجموع الشباب، والمؤسسات العسكرية من جيش وحرس، وحتى قوات الشرطة والدرك والتعبئة الشعبية العظيمة، كان لهم جميعاً حضور في الساحة.

لقد حقق الشعب الإيراني إنجازاً عظيماً خلال هذه السنوات الثماني. وإنني لا أجد في تاريخنا القريب – أي خلال القرنين الماضيين – مما يمكن أن تكون له علاقة بقضايانا الراهنة.

إن الشعب الإيراني خاض حدثاً عسكرياً جباراً بمثل هذه الرغبة والطوعانية، مضحياً بروحه ونفسه ومتوكلاً على إيمانه وعاطفته وقوته، حتى في العصر الصفوی الذي وقعت فيه حروب ضاربة، ولكن كل ذلك لا يكاد يبلغ ما شاهده اليوم على الإطلاق. وهناك أدلة واضحة على ذلك، فليس هذا مستعصياً على التحليل.

وعلى كل حال، فإن هذه الظاهرة هي ظاهرة لا نظير لها في تاريخنا الإيراني، أو أنها قلّ نظيرها، مراعاة للاحتجاط. فهل هناك ما هو أشد جانبية للفنان من مثل هذه الظاهرة العظيمة وهذا الموضوع المثير بكل ما فيه من تألق وجمال؟!

إنكم لو نظرتم إلى النتاجات الفنية العالمية لوجدموها في مجلتها متمركزة حول بطولات الشعوب والأمم، حتى في حالات الهزيمة.

فعندما قام نابليون بهجومه على روسيا، فإن اثنين من الروائيين والفنانين الكبار أقدموا على تصوير هذا الحدث، وهما الفرنسي «فيكتور هوغو» والروسي «تولستوي» الذي يمثل الطرف المنهزم في البداية، حيث يمكن للمنتصر أن يتحدى كما يحلو له، وأما المهزوم فقد صور الحادث في كتابه هكذا بكل ما لديه من فخر وخيانة وطنية، وركز على النقاط الزاهية التي لمحتها عين الفنان، فاستخرجها وسلط عليها الضوء حتى

أبرزها وجعلها تسير في موازاة الحركة الوطنية بعد أن قام بإضفاء الألوان عليها وجعلها تبهر الأبصار.

لقد حققنا نصراً مطلقاً في الحرب

لقد حققنا نصراً مطلقاً في هذه الحرب التي استغرقت ثمانية سنوات؛ فنحن لم نكن البادئين بالحرب حتى نقول: لقد انهزمنا؛ لأننا أردنا الاستيلاء على منطقة ما فلم نستطع، فالقضية لم تكن هكذا.

ولكن القضية كانت أنّ عدواً شنّ هجوماً علينا؛ بهدف الاستيلاء على جزء من أراضينا، وذلك بمساندة كل العالم، فصمدنا في مواجهته بشهامة حتى ارتدَّ على عقبه مدحراً، وقد تمرّغ أنفه في التراب. فهل ثمة نصر أكبر من هذا؟!

فعلينا برواية هذا الانتصار وتصويره بكل ما له من أبعاد وخصوصيات، وما يحتوي عليه من آلاف الأحداث والواقع؛ وهذه هي مهمة فنانينا الأعزاء، وكتابنا، وسينمائينا، وشعرائنا، ورسامينا، ومهمة أرباب الثقافة والفن.

لقد انتهتاليوم مهمة أولئك الذين خاضوا غمار المعارك في الجبهات، وأبدعوا تلك الملحة طوال السنوات الثماني، سواء منهم الشهداء أو المضحون أو المقاتلون. ومن هنا تبدأ مهمة ركب عظيم آخر، فعلاوة على ما أعدوه من تقارير طوال مرحلة الحرب – هذه المرحلة التي خلقت لنا العديد من الفنانين والشخصيات البارزة – فإن دور هذا الركب العظيم يأتي مرة أخرى بعد انتهاء الحرب، وهنا لا تقصر المهمة على ثمانية أعوام فحسب، بل لها أن تمتد أيضاً على طوال ثمانين عاماً إن أمكن.

ولا أطيل الكلام، ولكنني أتقدّم في النهاية بجزيل الشكر لكافة الأعزاء الذين قدّموا خدماتهم الجليلة لهذا الشعب وهذا البلد في ساحة الثقافة والفن، وما أبدعوه من ذكريات متألقة حول الحرب.

أسأل الله تعالى أن يتقبل منكم جميعاً، وأن يجعل التوفيق حليفكم، وأن يشمل بعنايته وتوفيقه كافة الأخوات والأخوة الأعزاء، وأن يمنحكما القدرة على أداء هذا الدين العظيم الملقى على كواهلهنا جميعاً أمام هذا الشعب وأمام التاريخ إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته